تركيا: إستراتيجية طموحة وسياسة مقيّدة... مقاربة جيوبولتيكية

Turkey: An Ambitious Strategy and a Constrained Policy - A Geopolitical Approach

المؤلف عماد يوسف

Imad Yosuf

مراجعة : محمود الرنتيسي-Reviewed by Mahmoud Al-Rantisi

ينطلق الباحث عماد يوسف في كتابه بشكل أساسي من دراسة النظريات الجيوبولتيكية، استنادًا إلى عدة نقاط تعتمد عليها الإستراتيجية التركية، هي: «الأهمية المركزية»، و«المجال الحيوي»، و«الحزام المحيط»، و«منطقة حوض شمال الأطلسي»، وكلّها مقاربات مبنية على نظريات وأفكار جيبوليتيكية؛ لتحقيق رؤى تركية طموحة بأن تصبح قوة إقليمية كبرى مؤثرة في المناطق المجاورة، وصاحبة دور فاعل في الساحة الدولية.

اعتمد الباحث فيما ذكره على كل من ألفريد ماهان، وهالفورد ماكيندر، وفريدريك راتزل، وكارل هاوسفر، وهم من أبرز الأسماء في علم الجيوبوليتيك عمومًا، وقد عملوا في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، أما فيما يتعلق بتركيا فقد اعتمد الباحث على أفكار رئيس الوزراء التركي أحمد داود أوغلو الذي كان له إسهام فعليّ في إعادة تعريف دور تركيا من وجهة نظر جيوبوليتكية، التي قدمها سابقًا في شكل أعمال أكاديمية، مثل كتابه العمق الإستراتيجي.

يتمثّل هدف الكتاب الرئيس في محاولة استكشاف السبب الحقيقي وراء التراجع النسبي للدور التركي في المنطقة، واستبيان القيود، ومواضع الخلل، إن كانت تقع في المنطلقات الفكرية، أم في السلوك الخارجي الفعلي، وينقسم الكتاب الذي اعتمد فيه الباحث المنهج التحليلي، ومنهج تحليل المضمون إلى أربعة فصول:

يتناول الفصل الأول تعريف الجيوبوليتكس ونظرياته وإسهاماته في إستراتيجيات الدول الكبرى لفهم كيف يمكن أن تستفيد منه تركيا؟ أو كيف يمكن أن توظفه؟

ويدرس الفصل الثاني تأثير سياسة تركيا وانعكاساتها في البيئة، وتحولات السياسة الخارجية، والتي يرى الباحث أنها بدأت قبل وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم بفترة وجيزة، والعوامل المؤثرة فيها، وتفعيل تركيا لخيارات القوة الناعمة.

ويركز الفصل الثالث على اختبار السياسات التركية في البيئة المضطربة منذ عام 2011، وانعكاسها على دور تركيا من خلال تحليل نقد السياسة الخارجية التركية، وخاصة في سلوكها تجاه الأزمة السورية.

أما الفصل الرابع فقد حاول الباحث فيه أن يناقش مناسبة متطلبات المنهج الجيوبوليتيكي للسياسة الخارجية التركية، وذلك من خلال ثلاثة محاور، هي: الواقعية التي يقوم عليها منهج الجيوبوليتكس ومقارنته بالمنهج المثالي الذي انتهجته تركيا، والثاني يسلط الضوء على الشخصية الوطنية وشخصية الحكومة التي يتطلبها منهج الجيوبوليتكس مع مقارنة ذلك بالشخصية الوطنية في تركيا التي يرى الباحث أنها تفرض قيودًا على السياسة الخارجية، أما المحور الثالث فقد قارن بين حجم القوة الكبرى والدور والمكانة

التركية في تصوراتها الطموحة، وبين الواقع الذي يشير إلى أنها قوة متوسطة لم تصل إلى مستوى القوة الكبرى، وليس لديها الاستقلالية التامة في سياساتها الدولية والإقليمية.

ويرى الباحث أن تركيا وجدت بالفعل خلال الفترة 2002–2010 بيئةً مواتيةً لدورها الجديد، ومتوافقةً إلى درجة كبيرة مع رؤاها وطموحاتها؛ وهو ما أعطى سياستها الخارجية قوة دفع، وأضفى مصداقية على دورها الفاعل، وبخاصة في الشرق الأوسط.

وقد لجأت حكومات العدالة والتنمية إلى اعتماد رؤية جديدة للدولة تغيرت بموجبها النظرة إلى تركيا من كونها هامشًا أو حاجزًا أو جسرًا إلى دولة مركزية وحاسمة، وكذلك حولت سياسة تصفير المشكلات المناطق المحيطة من مصادر تهديد إلى عمق إستراتيجي، كما بدأت تظهر بعض علامات الاستقلالية في سلوكها الخارجي، وبدأت تتحرك وفق أولوياتها نوعًا ما.

وقد كان هذا العمل النشيط في السياسة الخارجية، وفي السياقات الدبلوماسية مبنيًّا على تصورات فكرية ذات أبعاد جغرافية، ولكن منذ عام 2011 تغيّرت البيئة الإقليمية وتحالفاتها بفعل انعكاسات ثورات «الربيع العربي»، وبخاصة في سوريا، فتعرضت صداقاتها في دول الجوار لتوترات، ولم يعد دورها رائجًا كما كان، وأصبحت طموحات تركيا محل جدل، وبخاصة بعد ما حدث في سوريا التي تعد بوابة تركيا إلى العالم العربي، وأظهرت الأزمة السورية أن تركيا لم تستطع فرض مركزيتها على الهامش السوري بحسب الأفكار الجيوبوليتيكية التي اعتمدت عليها، وقوّض الغرب دورها، ولم يسمح لها بتنفيذ رؤيتها.

ويعزز الباحث موقفه من خلال طرح الأدوات التي اعتمدت عليها تركيا، والتي يرى أنها شهدت تراجعًا، مثل سياسة تصفير المشكلات، والعزلة الثمينة، أو تشير إلى ضعف الفاعلية في التأثير، مثل الدبلوماسية الإنسانية، وكذلك الحال في سياسة الفصل بين الملفات السياسية والاقتصادية، وبين مشكلاتها مع دول أخرى، مما يقلل من حجم نفوذها.

ويرى الباحث في فكرة أساسية أخرى للكتاب أن المشكلة ربما تكمن في استخدام تركيا القوة الناعمة أداة في تطبيق طموح مبني على الجيوبوليتيك الذي يحتاج إلى القوة والواقعية، لا إلى خطاب القوة الناعمة، ولاسيما في ظل استخدام دول محيطة، مثل إيران واسرائيل للقوة الخشنة، ويستدل أيضًا بالدور الروسي الذي يعتمد بشكل كبير على القوة العسكرية في أوكرانيا، وبخاصة في سوريا، ويدعو في هذا إلى ضرورة بناء منهج فكري معرفي جديد يوفق بين تصورات الدولة وإمكانيات سياساتها.

ويرى الباحث أن ما حدث في البيئة الجديدة فيما يتعلق بتركيا يمكن عزوه في جزء منه فقط إلى أسباب تغيرات البيئة الإقليمية واضطرابها، ويفرض ذلك على تركيا إعادة النظر في بعض سياساتها أولًا، وفي تصوراتها الجيوبوليتيكية الطموحة التي بدت بشكل واضح أن أمامها الكثير من القيود الداخلية والخارجية التي تحدّ وتضعف الزخم الذي اكتسبته خلال الفترة من 2002 إلى 2010.

في الختام تجدر الإشارة إلى أن ملامح تفعيل خيارات القوة الخشنة لدى تركيا بالموازاة مع القوة الناعمة بدأت تظهر في السياسة الخارجية التركية؛ استجابة للتغييرات الإقليمية، مثل بناء القواعد العسكرية في الخارج، واحتمالات التدخل العسكري لفرض الرؤى السياسية، والدخول في صفقات تسلح وأحلاف عسكرية، مما يدل على أن القناعة المتوفرة لدى القيادة التركية الحالية هي في تفعيل القوة الخشنة أكثر من تعديل المنهج الفكري الجيوبوليتيكي.